شذرات

بيانٌ هامٌّ

وردنا من حضرة الاب صاحب التوقيع ما يلي :

جاء في الكتاب المدعوّ « دلائل العناية الصمدانية في ترجمة السعيد الذكر البطريرك الحويّك » ، الصادر من مطبعة المرسلين اللبنانيين في جونية ، بقلم الخوري ابراهيم حرفوش ، عبارة غير مطابقة للحقيقة ، عند تكلمه عن ادارة الآباء اللعازريين للمدرسة المارونية الرومانية في سنة ١٩٠٥ ، وهي الآتية ، في صفحة ٣٧٨ ، قال :

« غير ان الآمال المعقودة على هذا التغيير لم تأتِ بالنتيجة المرغوبة . فان البطريرك على اثر زيارته رومية سنة ١٩٠٥ اقال الآباء اللعازريين من هذه الادارة . . . »

فنقول : ان المدرسة كانت سائرة سيرها الطبيعي ، والمجمع المقدس كان مسرورًا منها ، فضلًا عن رؤسائها . فلا نعرف الى اي شيء استند الخوري ابراهيم حتى قال : « ان الآمال المعقودة لم تأتِ بالنتيجة . »

اما قوله : « ان البطريرك اقال الآباء اللعازريين » فهو غلط ، لان البطريرك لم يكن قادرًا على اقالتهم . اذ انّ تعيينهم لهذه الوظيفة لم يكن منه ، بل من المجمع المقدس بارادة خاصة من البابا نفسه . والآباء اللعازريون استقالوا من تلقاء نفوسهم لاسباب صوابية ، فاضطرّ المجمع المقدس ان يقبل استقالتهم لظروف عارضة آنئذٍ .

فحبًّا للحقيقة التاريخية ، وازالةً للاشتباه الصادر من كلام الخوري ابراهيم حرفوش ، اتينا نرجو نشر كلمتنا هذه في مجلتكم « المشرق » الغراء ، مع اسداء الشكر سلفًا .

طرابلس ، في ١٨ تموز ١٩٣٦

الاب يوسف طوان
اللعازري

جريدة توزيع مال خراج لبنان الاميري

عود على بدء

تكرّم حضرة الخوري قسطنطين الباشا بالردّ على ملاحظتنا السابقة وقد كنّا نودّ ان نترك عند رغبته فنرضى بالجواب. ولكن انّى لنا ذلك، وحضرته قد نحى في ايضاحه الكثير من اقواله في مقدمته المجردة، واهمل الكثير مما ورد في ملاحظتنا. فنستميح القراء عذرًا لنعود بحضرته الى صلب موضوعنا، فنراه نقطةً نقطةً.

١ً قال حضرته في مقدمته «لجريدة توزيع مال خراج لبنان الاميري» ما يلي حرفيًا عن الامير يوسف: «انه احدث انقلاباً مهماً في طبقات سكّان هذه البلاد (بلاد جبيل والبترون) بان اقطع عدة قرى لذوي الزعامة الذين اعانوه على قتال بني حماده. فانه جعلهم برتبة المشايخ، واقطع لهم الاقطاعات الكافية.»[1] ويُفهم من كلامه هذا ان العائلات التي عدّدها ليست فقط من المشايخ، بل انها من كبار المشايخ اصحاب الاقطاع.

فاستغربنا صدور مثل هذا التصريح من مؤرخ معروف كحضرة الخوري قسطنطين، وابدينا استغرابنا في سؤال طرحناه عليه، واحببنا ان يأتينا بجواب مفيد، فقلنا: «ان التقاليد المشهورة التي تؤيدها التواريخ الصحيحة لا تعرف في لبنان الشهابي الّا بضع عائلات اقطاعية ذكر شيئاً عنها العينطوريني واورد الشدياق اخبارها مفصلة... فاذا كان الناشر الكريم قد اكتشف اكتشافاً جديدًا يسمح له بهذا الإكثار في تعداد ذوي الاقطاع فليتفضل ويرشدنا الى مصادره»[2].

وكان من حقنا ان ننتظر من الخوري قسطنطين امّا شرحاً مختلفاً عن شرحنا للنصوص التاريخية يُثبت قوله ويُبطل اعتراضنا، وإمّا اصولًا جديدة نجهلها واعتمد عليها حضرته في مقاله.

---

١) المشرق ٣٣ [١٩٣٥] ٢٢٤

٢) المشرق ٣٣ [١٩٣٥] ٦١٢

فأجاب حضرته : « اخذ عليّ اني اكثرت من المشايخ في لبنان بمن ذكرت منهم هناك غيرة منه على شرف هذه الرتبة في اهله محتجاً بأن ليس لهم كلهم ذكر في تاريخ اعيان لبنان »[1].

ويرى القرّاء من جملتنا التي اوردناها اعلاه اننا اخذنا على الخوري قسطنطين، ليس إكثاره من المشايخ ايّاً كانوا، وانما إكثاره من المشايخ ذوي الاقطاع دون سواهم . وأردف قائلاً عن تاريخ الاعيان : « لم يذكر صاحبه فيه من الاعيان الّا من وردت اليه اخبارهم من اهلهم كما يظهر هذا من كلامه في صفحة ٢٠٠ من كتابه »[2].

اما كلام الشدياق الحقيقي فهذا هو : « واعلم انّي لم استوفِ الكلام في نسبة بعض الاعيان لأني لم اجد في كتب الاقدمين الّا ما ذكرتهُ عنهم . وهذا هو احتجاجي لدى الذين لم ادخل نسبتهم في هذا المؤلف »[3] . . .

ثم تابع حضرته سلسلته الكريمة فاضاف الى العائلات التسع التي ذكرها في مقاله الاول احدى عشرة عائلة جديدة — ما خلا العائلات الاربع عشرة التي ذكرناها نقلاً عن الشدياق[4] . ولم ينسَ ان يؤكد انهم « لا محالة اكثر من ذلك »[5].

---

١) المشرق ٣٦ [١٩٣٦] ١٢١

٢) المشرق ٣٦ [١٩٣٦] ١٢١

٣) اخبار الاعيان في جبل لبنان ، ص ٢٠٠ — ويا للعجب كيف تحوّلت « كتب الاقدمين » عند الشدياق الى « اهل الاعيان » عند حضرة الخوري قسطنطين ! ولعلّ هذا التفسير يجعله يقول في مكان آخر : « ان كاتب الفصل الخاص بتاريخ بني الدحداح هو من كبار مشائخهم » . . .

٤) قال حضرته انه بعدّ للطبع « اصح واتمّ ما كُتب في بيان نظام لبنان الاقطاعي » ، رسالةً لناصيف اليازجي منذ سنة ١٨٣٣ . وهذه الرسالة مطبوعة في مجلة « الهلال » (١٣ : ص ٥١٢) . وقد ذكر اليازجي العائلات الاقطاعية كما وردت عند الشدياق ، ولم يختلف الاثنان الّا فيما يلي :

أ) ذكر اليازجي بني الخوري مسالح بين العائلات الثنوية اي الغير الاقطاعية خلافاً للشدياق الذي عدّهم من الاقطاعيين .

ب) ذكر اليازجي بين الاقطاعيين بني العيد وهؤلاء لم يرو اخبارهم الشدياق .

٥) المشرق ٣٦ [١٩٣٦] ١٢١

وكنا نقرأ حتى الآن ايضاح حضرته بشوق عظيم الى مصادره وقد اغنته عن الاعتماد على الشدياق ، فاذا به يقول :

« فان كان حضرة الشيخ الكريم يضنّ على المذكورين بلقب شيخ او يريد ان يجعلهم ادنى رتبة في المقام من بيت الدحداح او بمقام شيخ ضيعة فالامر بذلك بينه وبين احفادهم »[1].

فكان انذهالنا عظيماً ، ولا نظن قراء حضرة المؤرخ الأشركاء لنا في الانذهال ! اذا أيسمح الخوري قسطنطين لنفسه بتوزيع الالقاب والمراتب التاريخية ، ثم ، عندما نسأله عن مستنداته ، يتملص من البرهان ويحيلنا الى احفاد مَن الصق بهم تلك الالقاب ، طالباً اليهم الدفاع عن اقواله في اجدادهم ؟

انها طريقة في التاريخ غريبة كانت تكفينا مؤونة الجدال مع حضرته ، لو لم يكن له احترام في نفسنا يجعلنا نعتقد الاعتقاد الكلي ان عبارته لم تعبّر تماماً عن فكرته الحقيقية .

ان هذا الاعتقاد حملنا على البحث عمّا قد نشتمّ منه رائحة البرهان في مقاله . فوجدنا هذين القولين :

اولاً : « وحسبي ان اقول له اني اعلم العلم اليقين مثلاً ان المشايخ من بيت ابي طربيه في تنورين ما كانوا يتزاوجون من نحو ستين سنة واكثر الا مع بيت الخازن وبيت ابي صعب وبيت الظاهر . ومن هم بمقامهم »[2] . قلنا : وكأنّ حضرته ، بدلاً من ان يبرهن على صحة اقواله في اقطاعية العائلات المشرين ، اكتفى « بعلمه اليقين » عن مزاويج اسرة واحدة . وليست قضية الزواج لتدل على وجود رتبة الاقطاعيين عند عائلة ما .

وثانياً : « والدليل على ان من ذكرت هم من كبار المشايخ سعة املاكهم التي اقطعها لهم الامير يوسف في بلاد جبيل والبترون »[3].

---

١) المشرق ٣٦ [١٩٣٦] ١٢٢
٢) المشرق ٣٦ [١٩٣٦] ١٢٢
٣) المشرق ٣٦ [١٩٣٦] ١٢٤

وغنيٌّ عن البيان ان سمة الاملاك لا تفيد شيئاً ثابتاً. فان الامير الحاكم كان يهب الكثير لجميع الناس من اقطاعيين وغير اقطاعيين وغير مشايخ. وهل املاك الرهبان، وهي من هبات الحكّام، دليل على انهم كانوا اصحاب مقاطعات يحكمونها بالوراثة ؟

٢ً احببنا ان ينظر معنا حضرته في التناقض الواقع بين قوله المنقول عن الشدياق ان الامير يوسف كتب «الاخ العزيز» الى الشيخ سعد الخوري، وبين قول الامير يوسف نفسه: «عزيزنا الشيخ سعد الخوري»[1]. فأجاب[2]:

«ان الشيخ سعد الخوري كان اقرب المقرّبين الى الامير يوسف وفوق الجميع لا لكونه كاخيته فقط بل لكونه مربّيهُ»[3].

لا ندري ما هي العلاقة بين محبّة الامير يوسف لمربّيه وبين قولنا. والمعلوم ان الحكّام اللبنانيين كانوا يتخذون لهم مدبّرين من جميع الطبقات. فان الامير بشيراً الكبير مثلاً قد اتخذ ستة مدبّرين معروفين[4]. وكان اثنان منهم من العامة وهما فارس ناصيف وجدعون الترك، وواحدٌ من المشايخ النويين هو الشيخ نجم العقيلي، واثنان من المشايخ الاقطاعيين هما الشيخان سلّوم ومنصور الدحداح، وواحد من الغرباء عن لبنان هو بطرس كرامه، كاتب الامير امين بشير ورفيقه.

٣ً سألنا حضرته سؤالاً واضحاً عمّا «يثبت قوله ان الامير يوسف كتب الى الشيخ سمعان البيطار «الاخ العزيز»[5]، مع علمنا ان الامير يوسف شيّخ المذكور على البترون، وذلك لانه لم يكن جميع المشايخ، حتى الاقطاعيين[6]

١) سلسلة بطاركة الطائفة المارونية، طبعة الشرتوني، ص ٢٤

٢) ظنّ حضرته اننا نريد ان نقابل بين بني الدحداح وبعض العائلات. وحاشا ان نخوض هذه المواضيع الصيانية.

٣) المشرق ٣٦ [١٩٣٦] ١٢٢

٤) المشرق ٢٢ [١٩٢٤] ٥٧١

٥) المشرق ٣٣ [١٩٣٥] ٦١٤

٦) كبني الخازن اصحاب الكورة وكان يكتب اليهم الحاكم «عزيزنا» فقط (اليازجي: الهلال ١٣ ص ٥١٦).

منهم ، من رتبة « الاخ العزيز ».

فقال اننا سألناه عمّا « يثبت قوله ان الامير يوسف جعل سمعان البيطار شيخاً »[1]، والفرق بين الامرين ظاهر. وراح يستشهد بالمرحوم والدنا لانه قال في احدى مقالاته: « الشيخين منصور الدحداح وسمعان البيطار»، ثم بالشدياق فأورد النصّ التالي : « فتولى الامير يوسف المقاطعات المذكورة وجعل منصور يوسف الدحداح شيخاً على بلاد جبيل وكتب له صكّاً بذلك برسم عهدة . وسلّم سمعان البيطار مقاطعة البترون وشيّخه عليها وعمّرها »[2].

فنقول اولًا ان قولَي الشدياق والمرحوم والدنا لا ينفيان بالمراد لاننا لم نشك بمشيخة البيطار على البترون ؛ بل سألنا عن رتبة « الاخ العزيز ».

ثم نعود الى نصّ الشدياق الوارد اعلاه فنراه يحوي امرين : مشيخة منصور الدحداح من قِبَل الامير يوسف على بلاد جبيل ، ومشيخة سمعان البيطار من قِبَل الامير ذاته على البترون . فكيف استند اليه حضرته للقول في مقدمته :

« وكان الامير الكبير الحاكم اذا اختار رجلًا من لبنان لتدبير اموره من غير المشايخ او كاخيةً له رقّاه الى رتبة المشايخ وصار يكتب له « الاخ العزيز » واقطعه بعض القرى كما فعل الامير يوسف ... مع سمعان البيطار ، وكما قطع الامير بشير مع بني الدحداح...»[3] ؟

أيجوز ان نستغل القسم الاخير من النصّ لنبرهن على امرٍ ما ، وان نهمل ، بل نناقض القسم الاول منه لأنه لا يروقنا ؟ أهذا هو الانصاف العلمي الواجبة سيطرته على جميع ابحاث المؤرخين ؟

ونستغرب ايضاً توسّع حضرته هنا في الكلام عن ظلم الحكّام المتأولة للنصارى ، وعن عدم امكان هؤلاء الحكّام ان يكتبوا « الاخ العزيز » لرجل

---

١) المشرق ٣٦ [١٩٣٦] ١٢٣

٢) المشرق ٣٦ [١٩٣٦] ١٢٤ ؛ واخبار الاعيان ص ١١٢

٣) المشرق ٣٣ [١٩٣٥] ٢٢٤

مسيحي[1] .. وحضرته يعلم ان كتابة « الاخ العزيز » عادة درج عليها الحكّام الشهابيون دون سواهم . اما مقام بني الدحداح من الحكّام المتاولة فاننا نكتفي الآن لوصفه بما ورد في تلك المخطوطة التي كان حضرته يتلذذ بقراءتها وهو صغير[2] ، اي مخطوطة العينطوريني ، وقد جاء فيها عن الشيخ يوسف الدحداح انه « توجه الى بلاد بعلبك فصار يازجي عند بيت الحرفوش مدة . وبعده رجع الى بلاد جبيل وتقدم عند الشيخ اسمعيل حمادي وسلّبه كل شيء بيده »[3] . ولم يكن الشيخ اسماعيل المذكور بأقلّ شأناً من معاصريه الاميرين بشير الاول وحيدر الشهابيّين ، فان المؤرخ عينه يقول انه « اشتدّ بأسه في كامل المقاطعات . وصارت تهابه كافّة حكّامها . وباقي امره نافذ الى حدّ حلب لخوف الناس منه »[4] .

فاقوال العينطوريني هذه ، ونصّ الشدياق الذي اورده مناظرنا الكريم ، تدلّ دلالةً واضحة على بطلان زعمه في ما سبق ان « الامير بشير رقّى بني الدحداح الى رتبة المشايخ ... واقطعهم بعض الضيع » .

اما النصّ الذي استشهد به حضرته لانه يقول ان الشيخ سمعان البيطار كان معتمد الديوس عند الامير يوسف ، وان الشيخ ظاهر الدحداح كان يازجي الامير[5] ، فيدلّ على ان ظاهرًا المذكور كان شيخاً فاق « يرفع » الامير بشير اذًا بني الدحداح الى هذا المقام ...

« بقيت قضية « المعلّم » . يصرّ حضرته على ان الامير الكبير كان يمنح هذا اللقب لمدبّريه الغرباء عن لبنان . ولمّا سألناه رأيه في المعلّمين الياس اده ونقولا الترك اللبنانيين اجاب : « ولا يخرج من هذا الحكم المعلم نقولا الترك شاعر الامير ، اذ هو اسطنبولي الاصل كما يدلّ على ذلك لقبه « الترك » .

---

١) المشرق ٣٦ [١٩٣٦] ١٢٣

٢) المشرق ٣٦ [١٩٣٦] ١٢٤

٣) مخطوطة المكتبة الشرقية 47°5 ص ٢٦ ؛ والمشرق ٤ [١٩٠١] ٨٢٦

٤) مخطوطة المكتبة الشرقية 47°5 ص ٢٢ ؛ والمشرق ٤ [١٩٠١] ٨٢٤

٥) المشرق ٣٦ [١٩٣٦] ١٢٤

وكذلك المعلم الياس ادّي (كذا بالحرف الاخير) كاتب الامير فانه بعيروتي الاصل . »[1].

لنكن صريحين ولنتّفق على احد امرين لا مناص من الاختيار بينهما : إمّا ان يكفي اسم المكان للدلالة على اصل حامله ، واما ان لا يكفي للدلالة عليه . فاذا كان يدل على شيء يجب ان نطبّقه على الرجلين معاً لا على الواحد دون الآخر . يقول حضرته ان اسم « الترك » يدل على اصله الاسطنبولي . فلماذا لا يريد ان يدل اسم « ادّه » على اصله وهي قرية في بلاد جبيل ؟ ولا سيما ان المعلم الياس مولود في تلك القرية[2].

واذا كان اسم المكان لا يدل على شيء ، واذا كان ينبغي ان ننظر الى موطن الرجل في مولده وحياته ، فلماذا يثنّ حضرته باللبنانية على نقولا الترك وهو قد ولد ومات في دير القمر وعاش في بلاط الامير[3] ؟

وفي كل حال ، لنفترض جدلاً ان جميع من سُمّوا « معلمين » كانوا غرباء عن لبنان فاذا يفيد ذلك ؟ لماذا حتّم حضرته على الامير الحاكم ان يمنح هذا اللقب وان توازي « رتبة » المعلم رتبة الشيخ ؟ اجل ، كنا نودّ لو ان حضرته لم ينسَ في هذه المرة ايضاً المصادر ، وهي يجب ان تكون الحكم الفصل في مثل هذه الشؤون .

وفي الاخير نؤكد لحضرة الخوري قسطنطين الباشا اننا لم نسأله سؤالاً واحداً « للتعجيز » كما ظن ، ولا انتقدناه « غيرة منا على شرف الرتبة في اهلنا »[4] بل اضطررنا مكرهين الى ابداء ملاحظتنا غيرةً منا على الحقيقة التاريخية ، وقد كثر مشوّهوها في لبنان.

نجيب سليم الدحداح

---

١) المشرق ٣٩ [١٩٣٦] ١٢٥ — ويظهر ان حضرته اجاب بعجلة كما ترى من كتابته « اده » بالياء وكما يظهر من جملته هذه : « في الوقت الذي كان فيها المشايخ بيت الهاشم من العاديين » ولا معنى لها لأن العاديين فرع من بيت الهاشم .

٢) المشرق ٢ [١٨٩٩] ٦٩٤

٣) تاريخ الآداب العربية للاب شيخو ؛ الجزء الاول : ٢٢

٤) ومن رأينا ان تُلغى جميع الالقاب لأنه لم يَبْقَ لها ادنى معنىً . اما فائدتها التاريخية ففي امكان طالبيها ان يبحثوا عنها في كتب التاريخ الصحيحة .